

الإسلام ومشاكل القرن العشرين

للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

والبخارى ومسلم وبعض السنن والمسانيد ، فاذا رجعنا الى الاصول المنتقاة متبمين سلسلة الاسانيد التي تعتبر احد مفاخر الفكر العلمى الإسلامى - لما انطوت عليه من تدقيقات وتحريات - امكنا ان نستخلص في وضوح جملة من الانكار الإسلامية النى دعم بها سيدنا محمد عليه السلام هيكل الإسلام في مقوماته الجوهرية ولن يكون بحثنا - نظرا لضيق المقام - مستقصيا ولا مستوفيا ، ولكن انتقائيا ، نستكمل جوانب النقص فيه بالاجابة عما يعن لحضراتكم من اسئلة استيضاحية .

فلنبدا بالجانب الاجتماعى في آراء ونظريات الرسول عليه السلام ، فقد بلغت الاحاديث ذات الطابع الاجتماعى حسب احصاء قيمت به شخصا نحو اربعة اخماس المجموع وضعت كلها حلولا رصينة لقضايا المجتمع .

ويشكل هذا المجموع ما يمكن ان نسميه تجوزا ينجذب اليها كثير من شبابنا ومن هذه الايديولوجيات مذهب الماركسية الذى تواجهه في الإسلام فكرة العدالة الاجتماعية والتعادلية الاقتصادية ، فاذا اعتبرنا ان الماركسية تركز على ثلاث دعائم أساسية هي الحد الحيوى الأدنى والتسوية الطبقيّة ، واعتبار العمل بمثابة رأس المال الحقيقى طبقا لمبدأ Capital-travail (العمل رأس المال) لكارل ماركس ، وجدنا الفكرة الإسلامية ملخصة في ثلاثة احاديث شريفة هي قوله عليه السلام :

اتعمد في قرطبة بين 21 و 27 مارس 1977 المؤتمر الإسلامى المسيحى العالمى الثانى امتدادا للمؤتمر الاول الذى انعقد منذ سنتين بنفس المدينة ، وكان موضوع هذا اللقاء هو شخصية سيدنا محمد وشخصية سيدنا عيسى عليهما السلام .

وفيما يلى موجز تخل الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

قال الفيلسوف برناردشو : «لو كان محمد حيا اليوم لحل مشاكل عصرنا وهو يشرب منجان قهوة .»
نعم ان رسول الإسلام قد خرق بفكره الثابت المعزز بالوحى غياهب الحضارات ، وحرر ابعاد الفكر البشرى ليستشف في بساطة ممتعة الخلول المثلى لمشاكل الإنسانية في مختلف الاعصار والامصار .

لقد شملت نظراته الكاشفة شتى تطورات الانسان في معالجات فكرية واقتصادية واجتماعية يندهش الفكر العلمى الناقد اليوم لدى انطباقها على معطيات انبعاثه المتجددة ، وتحديات هذا الانبعاث .

وسوف نستعرض نماذج من هذه البادرات انطلاقا من نصوص الاحاديث الصحيحة التى اوصلها الامام احمد بن حنبل الى المليون اى الف الف بلغة ذلك العصر ، ولكن نقد رواة الحديث لم يحتفظ منها باكثر من خمسة آلاف هي تصارى ما ورد في الصحاح كالموطأ

(1) ان في المال لحقا سوى الزكاة (وهذا منطلق مشروع لتحقيق نوع من التسوية بين طبقات الامة) .

(2) انا خصيم من لم يؤد اجرة الاجير قبل ان يجف عرقه .

(3) من اكل اجرة الاجير حبط عمله ستين عاما .
وقد افرد ابن خلدون في مقدمته فصلا عنوانه « الكسب رأس المال » حل فيه هذه الفكرة قبل الزعيم الشيوعي كارل ماركس بعدة قرون ، وقد التقت محاضرة في الموضوع في قلب موسكو بدعوة من اكااديمية العلوم .

ان احاديث الحسبة في الاسلام — وهي تستهدف القضايا الاجتماعية والاقتصادية — تشكل دستورا للمدينة الفاضلة التي يتحقق فيها التوازن هو سر الجمال والكمال في الحياة ، فالانسان الفاضل حقا هو الذي لروحه عدل ما يمنحه لجسده وقد قال العالم باستور Pasteur « ان من قضى ساعتين في كل يوم يجب ان لا يعتقد انه اضاع وقته وانها اعطى لروحه بعض حقا » ، وقد غضب الرسول عليه السلام عندما رأى اقواما يتنزهون عما يفعله فقال معرضا بأولئك « انى اصوم وانظر واتوم وانام واتزوج ومن رغب عن سنتي فليس مني » .

وسئلت عائشة عما كان يفعله الرسول في بيته فقالت في جواب انساني رائع : « لقد كان بشرا كالبشر » وهذا هو سر عبقرية الرسول لانه عرف كيف يوفق بين جوادب الحياة وقد اعتبر عليه السلام مصلحة المجتمع انعليا وهي اساس الفكر الاسلامي ، ومن ذلك اعتبر الامام مالك مبدا « المصالح المرسله » وتحكيم العادات كما اعتبر الرسول ان الحرية الحق هي التي لا تسطو فيها حرية على حرية وان ضابط السمو الروحي كامن في عدم المساس بحقوق الغير وكرامة الغير ، وان المومن الحق لا يكذب الا في اصلاح ذات البين ، وان من محبطات اعمال المومن اغتياب أخيه الانسان وقذف المرأة المحصنة وقد دخلت يهودية قصيرة القد على الرسول وعنده زوجته عائشة فتبسمت هذه استخفافا فغضب عليه السلام وقال : « يا عائشة لقد نطقت بكلمة لو مزجت بماء البحر لما زجته ! » .

وقد خول رسول الاسلام المرأة نصف ميراث الرجل معترفا لها بحق الاحتفاظ بمالها ومشاركة زوجها

في ماله بحكم النفقة المحتمة فكانت هي الراححة ، كما حذر الرسول من الطلاق المشروع بقوله : « ابغض الحلال الي الله الطلاق » ملاحظا مع ذلك ان نصح عرى الزوجية ليس بالامر الهين وان « لا طلاق في اغلاق » وكانه حل بهذه المرونة ما يواجه الانسانية اليوم من مضايقات ! وقد فضل الرسول تعدد الزوجات مع التشديد في لزوم العدل « ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » وهنا نوه كل من ويستر مارك Westermack الخبير الاوروبي في شؤون الزواج والزعيم الاشتراكي ليوم بلوم Blum بالتشريع الاسلامي حيث فضلا هذا النظام على عادة اتخاذ الخليلات التي تقوض الاسرة الاوروبية ، على ان نظام الاقتصاد القبلي في عصر الرسول عليه السلام كان يتطلب هذا التعدد الذي خفضه عليه السلام الى اربع نسوة بدل عشرة فآزید وقد اصدرت مصر بعد ثورة 1952 مرسوما اباحت فيه تعدد الزوجات في الريف لاسباب اقتصادية ومن جهة اخرى وجد الرسول مجتمع عصره غارقا في خضم الاسترقاق فوضع جبلة من الكفارات ، لتشجيع العتق جاعلا حدا نهائيا للاستعباد خارج الجهاد المشروع وقد شرح ذلك سيدنا عمر بن الخطاب حيث قال مستنكرا : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟ » .

وقد وضع الرسول خطة رصينة للتخطيط العائلي تتلخص في الحرية الواعية فاباح العزل مع الدعوة الى الانجاب في حدود المسؤولية ، وكان عليه السلام يخاطب مائة الف صحابي فقط وهو عدد المسلمين في عصره ، عندما قال « تكاثروا تناسلوا فاني مباحكم الامم يوم القيامة » .

ومما يتصل أيضا بالمقوم الاقتصادي والاجتماعي في الامة ضمان مستوى ثقافي تمنحى معه الامة تدريجيا ، وقد دلت الاحصاءات في المغرب مثلا حسبها ورد في كتاب « المغرب المجهول » لموليراس الذي صدر عام 1895 على ان قبائل باكملها في شمال المغرب الاقصى كانت تعرف القراءة والكتابة لان المومن كان يشعر بان ايمانه لن يكتمل حتى يكون قادرا على قراءة القرآن . اما قول الرسول عليه السلام : « انا امة امية لا تكتب ولا نحسب » فانه استهدف بذلك ضرورة الانطلاق من القاعدة مؤثرا اياها على هرم المجتمع في مستواه العالي ! وقد وضع عليه السلام ضابط الحجر الصحي

مظاهر الفكر الإسلامى الصحيح من النصوص الصحيحة
لأحاديث الرسول .

وهكذا أصدر سيدنا محمد عليه السلام فى سنته
عن مبدأ اليسر حيث قال « ان هذا الدين يسر ولن
يشاد الدين احدى الا غلبته » وقال : « ان هذا الدين
متين فاعيدوا فيه برواق » .

كما أصدر عليه السلام فى قوله وفعله كله عن
مبدأ الحب والرحمة والانسانية الشاملة فقال : « انما
انا رحمة مهداة ، وخطبه الحق فى قوله : « وما
ارسلناك الا رحمة للعالمين » فدعا الى الوحدة الحق بين
اهل التوحيد واعتبر المجوس الزردشتيين اهل الكتاب
لتوحيدهم وروى ابو هريرة قوله عليه السلام : « بشر
من قال لاله الا الله بدخول الجنة » فلم يشترط عليه
السلام فى الزلفى من الحق سوى تويده وقد تعزز هذا
الحديث بحديث آخر عن ابي هريرة ايضا : « احق
الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا اله الا الله
خالصا من قبله او نفسه » ، وقد دعا الرسول الى حماية
الحيوان جميعه قائلا : « فى كل كبد رطبة صدقة » وبذلك
اصبح المجتمع الإسلامى الصالح غير محتاج الى
« جمعيات الرفق بالحيوان »

ولا نقصد فى حديثنا هذا الا الآراء المستخلصة من
احاديث الرسول عليه السلام حيث ضربنا صفحا عما
ورد فى القرآن من آيات سبقت الكشوف العلمية بأزيد
من عشرة قرون وقد أصدرت مطابع (سيفرس)
Seghers بباريس عام 1976 كتابا لموريس بوكاي
Maurice Bucaille بعنوان : « التوراة والقرآن
والعلم » أكد فيه انه لم يرد قط فى القرآن ما يخالف
العلم ويتناقى مع معطياته .

وقد عزز الرسول التعادلية الاقتصادية بنظام
الزكاة الذى يقتطع من الغنى نصف عشر ماله لفائدة
الفقر دون ان يؤدي الامر بهذا الفقر الى تكاسل عن
الكسب لان الكسب عبادة ولان الكد على العيال من
أكد القربات وقد قال عليه السلام : « لان يحتطب احدكم
حزمة على ظهره خير من ان يسأل احدا اعطاه او
منعه » وقال : « اليد العليا (اي المعطية) خير من اليد
السفلى (اي الاخذة) واعتبر الرسول من الاصناف
الثمانية الذين لهم حق التمتع بالزكاة الفقير الذى له
قوت سنة كاملة لان الرسول اراد ان يوفر للمواطن كل
مقومات الحياة الودية الرغيدة بالاضافة الى القوت
اليومى حتى يمكنه من اللباس الطيب ومن تربية ابنائه
والسهر على صحتهم والحفاظ على كرامة الاسرة كخواة

عندما قال : « اذا كان الطاعون فى بلد فلا تدخلوه واذا
كنتم فيه فلا تخرجوا منه » كما أصدر سلسلة من
التشريعات التى تضع الحل المناسب لجملة من مشاكل
الصحارى والبادى التى انطلق منها الاسلام فقال عليه
السلام « اذا وقع الذباب فى اناء احدكم فليغمسه فان فى
احد جناحيه داء وفى الآخر دواء » وقد قام مؤتمر طبي
انعقد بلندن عام 1930 بتحليل الجناحين فوجد فى
احدهما عناصر كيميوية تعقم العناصر الموجودة فى
الجناح الآخر ، وقد نشرت مجلة « التقوى » المصرية
تقرير هيئة الاطباء فى ابانه ، كما أكد عليه السلام ضمن
اربعمائة حديث طبي وردت فى رسالة خاصة للسيوطى
قوله : « اذا ولغ الكلب فى اناء احدكم فليغسله سبعا ،
احداهن بالتراب » . وفى ذلك اشارة الى ان جرثومة داء
الكلب لا تستأصل الا بالترية المسماة humus والتي
هى احدى عناصر البنسلين penicilline وكان عليه
السلام يداوى الجراحات بالريق ، وكشف الطب
الحديث ان ريق الانسان يحوى من الفيتامين نحو مائة
ضعف ما يوجد فى غيره .

وكان الرسول عليه السلام سبقا الى المرونة فى
الدين فلم يستنكف عن مساندة بعض ما يندرج اليوم
تحت شارة الدرجة او الموضة حيث دعا الى الرفق
بالمرأة « رفقا بالقوارير » وسمح لعائشة وأم سلمة -
كما فى صحيح مسلم - بحشى ثلاث حثيات على ضميرتيهما
فى الوضوء الاكبر دون فكهما مستجيبا بذلك الى رغبة
عارمة عند المرأة المصرية التى تريد الحفاظ على دينها
دون ان تحرم نفسها من تزيينات الحلقات
الحديثة ، وقد جعل الرسول من المرأة
ربة البيت والاميرة على شؤونه . ولولا
عاطفتها ورقة شعورها لاسند اليها الحكم فى منصة
القضاء ، وقد أحاطها عليه السلام بعطفه ودلها بما لم
تحلم المرأة المعاصرة بالتمتع به حيث اناط بها اختيار
شريك حياتها حقها المالى كاملا ، فى حين ان المرأة
الغربية ما زالت ترزح فى القرن العشرين تحت ثقل
نظام الشركة الزوجية

régime de la communauté matrimoniale

الذى يخول للزوج السيطرة المطلقة على مال زوجته وقد
سمح القانون الفرنسى مؤخرا فى عهد الجنرال دوكول
G. De Gaulle بتسط يسر جدا من هذه الحقوق التى
متع الرسول بها المرأة المسلمة منذ اربعة عشر قرنا وقد
صنفت فى ذلك كتابا باللغة الفرنسية عنوانه : « اضاء
على الاسلام او الاسلام فى بنايحه » حيث استقيت بعض

طبية للمجتمع الفاضل ذلك المجتمع السذى لا يكلى في استكمال توازنه مجرد القيام بشعائر الدين من صلاة وصيام بل ان هذه الشعائر لن تؤتى اكلها حقا الا اذا ترنت بالتعاطف والتعاضد وتبادل الاحترام لحقوق المواطن ، ولذلك اعتبر الرسول من محببات الاعمال كل ما اخل بكرامة المواطن فضلا عن المساس بحق من حقوقه ، وقد دعا الرسول عليه السلام الى ما في الآية الشريفة : «ان الله لا يغير ان يشرك به ويفقر ما دون ذلك لمن يشاء» جاعلا من المستثنيات عدم قبول التوبة مالم يتم رد المظالم الى اصحابها اذ في ذلك وحدة كفالة توازن المجتمع .

على ان تشريع محمد هو اصل مدونة نابليون التي ما زالت تاعدة التقنين والتنظيم بفرنسا ومن سبج في فلنكها ، وقد انعقد مؤتمر دولى للقانون عام 1951 اجمع عنى الاعتراف بان الفقه الاسلامى هو فقه عالمى يصلح لان يكون تشريعا للانسانية جمعاء بما حواه من عناصر استكملت مختلف اوجه النظر في المجالات الحضارية والاقتصادية والمعاملات .

تلك هى بعض مقومات المدينة الفاضلة كما ارادها رسول الاسلام ، ومن اروغ المبادئ التي اقامها الرسول لحل جميع مشاكل هذا الكون فكرة النسبية *relativité* التي تميز بين العالمين : عالم الملك ، وعالم الملوك ، وهما ما نسبه اليوم بعالم المحسوسات ، او المنظورات وعالم ما وراء الطبيعة ، او ما وراء المادة ، معتبرا كل ما يتصل بالانسان نسبيا ، وكل ما يتصل بالله مطلقا ، ولم يقع المعتزلة في شرك تعطيل الصفات الالهية ، الا بحيادهم عن هذه القاعدة المثلى ، اذ ببدا النسبة نهم تول الله تعالى : «وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون» وقوله : «في يوم كان مقداره خمسين الف سنة» نظرا لاختلاف المقاسات والابعاد بين اطراف العالمين ، وقد حمل رجل الفضاء في سفينته القطة الصغيرة فماد بها الى البسيطة وهى اكبر سنا من امها التي بقيت على الارض ، وقد خبط بعض العلماء والفلاسفة منذ عهد ارسطو في علة الارباع المعروفة في خصوص الدلالة على وجود الله وشك الفيلسوف الالماني كانتط في كثير من مدارك العقل غير الخالص *Raison pure*

ولكن محمدا عليه السلام جاء بدليل بسيط عززه القرآن بقوله : «الله نور السماوات والارض» فكأنه اراد ان يقتننا بانه اذا كان العلم الحديث قد عجز عن استكناه ماهية نور الكهرباء مثلا وهو طاقة محسوسة فكيف بنور يخرج عن حيز هذا الكون ، ذلك ان سر

نجاح الانسان في هذا العالم الرياضى الذى يمشى فيه هو ان يعرف قدره ولا يتجاوز حده ، والى ذلك دعا رسول الاسلام وقد كانت عاصمة برلين تصدر قبل الحرب العالمية الثانية عشرات المجلات حول الروح ، كانت كلها تخطب خبط عشواء لان الروح ليست من امر هذا الكون بل هى من امر الله ، وقد اختبر اليهود مدى صدق رسالة سيدنا محمد عليه السلام بسؤاله عن ماهية الروح ، فاجاب طبقا للاية الشريفة : « قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا » .

وقد حلل الرسول عليه السلام الكثير من المشاكل الفكرية التي تخطب فيها رجال الفكر منذ اعرق المصور وما زالوا يحاولون الكشف عن اسرارها وقد وهم بعض الفلاسفة حتى المسلمين ممن تأثر بالمدرسة الاغريقية عند ما وسعوا دائرة العقل اكثر من اللازم ، فزعم ابن طفيل الاندلسى المغربى في رسالة «حى بن يقظان» وابن سينا المشرقى في «رسالة الطير ودوفوسى Defoe الاوربى في قصة روبنسن كروزوى Robinson Crusoe ان الطفل الذى تربى فريدا وحيدا في الغابة دون ملامسة البشر يمكنه بمجرد التفكير ان يحقق وجود الله ، ولكنهم لم يدركوا ما ادركه الفزالي انطلاقا من احاديث الرسول ان النفس والروح والقلب والعقل مدارك لطيفة ربانية واحدة من جملة ادواتها الالهام *Inspiration* السذى به خططت النحلة منهج حياتها وهيكلا خليتها بصورة غير قابلة للخطا *Infaillible* كما يقول علماء الاحياء وهو مصداق قول الله تعالى : «واوحى ريك الى النحل» وهذا الالهام هو الذى يتبلور عند المرأة في صور محدد *Intuition* اى حس سادس اشار اليه الحديث المرسل او الموقوف بقوله «اللهم ايماننا كايهان العجايز» وهو ايضا منطلق علم اليوكا *Yoga* اليوم ذلك العلم الذى احصيت شخصا بين وصفاته التجريبية التي اصبحت مناظ جاذبية الشباب - نيفا وعشرين حركة ووضعة في الوضوء والصلاة وحدهما ولا يريد ان اطليل في هذا الباب مخالفة ان ننزلق الى متاهات بعض المتصوفة التي جعل الرسول عليه السلام حدا مشروعا لابعادها عندما قال «امرنا ان نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر» فضرب عليه السلام اروع المثل لوجوب الالتصاق بالارض دون العروج الى الاجواء المتناهية حتى نظل منطقيين واقعيين في شؤون هذه الدنيا وفي علاقتنا مع بنى الانسان .

تلك فذلكة مقتضبة جدا لم نستهدف من خلالها سوى لمسات عابرة لحقائق لا يمكن استيفاؤها في عرض موجز غير اننى اتمسح المجال لزملائي المؤتمرين وخاصة اخوانى المسيحيين لا لقاء ما يعرض لهم من أسئلة نستكمل بالاجابة عنها مالم نتمكن من تفصيل القول فيه .